صفحة ذهبية من تاريخ لبنان

البطريرك اللبناني
الياس بطرس الحويك
١٨٤٢-١٩٣١

بقلم المحامي منصور عواد عوّاد

٣

البطريرك

في اليوم الرابع والعشرين من كانون الاول سنة ١٨٩٨ ، كانت الثلوج تغطي لبنان بآكامه وسفوحه ، من شاطئ البحر الى اعلى قمة فيه . وكانت سماء لبنان مربدّة قاتمة تجلّلها الغيوم والسحب وقد تجمدت من قرص البرد ، وبدا البحر متجهّماً وجهه ، مسوداً كله ، مرعباً منظره لا يظهر منه الا امواجه تتكسر على الشاطئ مزبدة بيضاء تحاكي في ذلك القتام الطبيعي النهاري بقيّة الامل في عيني الرجل اليائس من الحياة ابّان شدة محنته واشتداد قنوطه ! وقد عمّ السكون البلاد بأسرها فلا صوت للطبيعة ، ولا صوت للناس . فهم قد لازموا بيوتهم مختبئين وكان الرعد يختنق عند دويّه كأنه صادر من صدر فيه حشرجة الموت ، فكان الثلج وهو يغطي ارض لبنان جميعها كأنه كفن اعدّته يد الرب للبنانيّين عظيمين انطفأ سراج حياتهما في ذلك النهار ، بل كانت السحب باربداد وجهها كأنها بساط الرحمة الالهية نُشر على وجه السماء حداداً على الراحلَين الكبيرَين . كان احدهما مجهولاً لدى الناس معروفاً لدى الله ، منقطعاً الى خدمة ربه في صومعة على رأس جبل في محبسة دير مار مارون عنّايا ، وهو الحبيس الاب شربل مخلوف بقاعكفرا الراهب اللبناني الذي عُرف منذ طفوليته بالقداسة وكان قديساً في جميع ادوار حياته الرهبانية . والذي مضى على وفاته ثلاثة وثلاثون عاماً ولا يزال جثمانه محفوظاً الى يومنا هذا كأن روحه لم تفارقه الا منذ ساعات ، بل لا يزال يرشح من جثمانه عرق لا يرشح الا من

اجساد الاحياء! هذا هو احد الراحلين في ذلك النهار، وقد تحدث الناس في عجائبه وعجيب بقاء جثمانه في تلك الحالة الغير الطبيعية حتى هذه الساعة. وهو الذي يُوشر الفحص عن قداسته بطريقة قانونية لتثبيته قديساً وتكريمه على المذابح.

واما الراحل الآخر العظيم امام الله والناس فقد كان البطريرك الماروني يوحنا الحاج الاداري الاوحد، السياسي الفذ، الماضي العزيمة، العامل، النقاد، النادر المثال بنشاطه وعزة نفسه وبراعته في الحكم، الراعي الصالح الذي رعى الملة المارونية نحو تسع سنوات فبلغ بها شأواً عالياً مجيداً قد لا يبلغه غيره في سنوات كثيرة!

وكانت اجراس الكنائس في الطائفة المارونية، من سيف البحر الى ما وراء جبل لبنان الشرقي، تنعي البطريرك باصواتها المختنقة حزناً وألماً وفي رنّتها غصّة الموت واصوات القبور فتّها فيها الصقيع والهواء المتلبس بضباب الثلوج فظنها الناس مدركة هول المصاب بمن تنعاه مختنقة اللب والصوت عليه!

وكانت العواصف في البحر الى مجال بعيد تحمل في احشائها صدى النكبة الشديدة التي انتابت الموارنة. فأطلّ الموارنة وسائر اللبنانيين معهم من كوى بيوتهم يبحثون في ذلك الفضاء القاتم عن نجم البطريركية. فخاله اكثر الناس في «نجم» كسروان الذي كان يرسل اشعته في سائر البلاد، كأنه نجمة الصبح الصاعدة فوق صنين تبشر بالصباح، ولا غرو فقد كان ألف اللبنانيون منذ قرن ان يروا نجوم البطاركة تبزغ من كسروان، من البطريرك العالم يوحنا الحلو الى البطريرك الفتى يوسف حبيش الى يوسف الخازن فبولس مسعد فيوحنا الحاج. ولكن ما اقصر مدى الابصار البشرية فانظار الناس لها افق ضيق تكون تعساء اذا علّقنا كل آمالنا عليه وعلى ما يبصر الناس منه، وللعناية الالهية افق وسيع بل غير متناهٍ لا يحدّه حدٌ بشري!

ولا يُستغرب افتكار الموارنة بمن يخلف البطريرك يوحنا الحاج ساعة فُجعوا به فهذا مألوف البشر ان يودّعوا الملك الميت: عاش الملك، ليحيَ الملك! فالبطريرك الماروني ملك في الشرق ورأس لا تعيش الملة بدونه، فلا يحيا الجسم بدون رأس. لا يُستغرب الامر والبطريرك الماروني هو المرجع الاكبر الاول في حياة البلاد الدينية والسياسية، وللناس كلهم مصالح في الدين والدنيا، وحيث تكون مصلحة

الافتتان فهناك عقله وقلبه ، بل ان البطريرك الماروني أب للملة المارونية، والابناء لا يستطيعون، اذا مات والدهم، ان يعيشوا ايتاماً اذا كان في وسعهم ان يستعيدوا أباهم الى الحياة ، فانتخاب الخلف البطريركي يعود ابو الطائفة الى الحياة في شخص خليفته . وهذا سرّ توجه انظار الموارنة حال وفاة بطريركهم الى من يخلفه لا لانهم ينسون او يتناسون السلف العظيم بل لانهم يحبون الحياة ويريدونها اغزر مما كانت في الرأس الجديد حيث حياتهم بكل انواعها ومظاهرها .

فبينما كان اللبنانيون ينظرون الى « نجم » كسروان البهيج ، كانت العناية الالهية قد حوّلت نظرها الى نجم آخر اعدّته للموارنة وللبنان ، الى نجم حلتنا المعجب آنئذٍ في رومية وراء البحار والمواصف ، يبتهج بنوره تلامذة المدرسة المارونية ، دون سواهم ، يبتهجون بـه ولا يقدرونه قدره ولو أُعطي لهم ان يدركوا من كان ومن سيكون ذلك الرئيس لطمسوا عليـه عيونهم وقلوبهم ولما فارقوه قيد لحظة طيلة اقامته بينهم رئيساً عليهم !

حملت اسلاك البرق الى رومية نبأ كارثة الموارنة ببطريركهم يوحنا الحاج ؛ فعظم المصاب على المطران الياس الحويك واتجهت انظاره الى السدة البطريركية واخذ يفكر في من يجب ان يخلف ذلـك الطود العظيم الذي غاص في بحر الابدية ويتأمل في عظم المسئولية التي ستُلقى على كاهله ، ويطلب من الله ان يقيّض لطائفته راعياً حكيماً ، غيوراً ، عالماً ، خبيراً ليسوسها سياسة رشيدة على حسب ما يقتضيه العصر وحاجاته .

كان فكره يجول متنقلاً بين احبار الطائفة يزنهم واحداً فواحداً ليرى من كان كفوءاً لذلك المنصب الخطير السامي والعبء الثقيل . وكان يرى الكفاءة في صديقه المطران يوسف ابي نجم، شأنه في ذلك شأن جميع الموارنة في تلك الايام . وما خطر بباله انه سيكون هو خلف البطريرك يوحنا الحاج ، لانه لم يكن معتقداً بذاته انه افضل من ذاك او من سواه ، ولانـه كان يزعجه كثيراً ركوب البحر في الصيف والبحر صافٍ هادئ ، فكيف بـه وهو وقتئذٍ في ابان الشتاء والمواصف تلو المواصف والاعصار يتبع الاعاصير . وكان الوقت ضيقاً لا يمكنه من الوصول الى مجمع انتخاب البطريرك في الوقت المناسب . كل هذا

جال في خاطره فحسبه دليلاً من الله على انه تعالى لا يريده للبطريركية، فعرضه على مجمع انتشار الايمان المقدس في رومية ليستنير برأيه ويرتشد باوامره ويلقي عن عاتقه عبء المسئولية في ما عزم على عمله بالبقاء في رومية ، فاقنعه مجمع انتشار الايمان بوجوب الرجوع الى لبنان للاشتراك في انتخاب البطريرك. فظنّ انه براجعته البابا لاون الثالث عشر يستطيع ان يتخلّص ويتخلّف في رومية ، فجاء الامر معكوساً. لان العناية الالهية ، التي كانت اختارت شطراً للاون الثالث عشر العظيم نجماً وضّاء ، كانت قد اختارت النجم ذاته طالعاً سعيداً للبنان بالحويك. فما كان من لاون الثالث عشر الا ان امره بالمبادرة الى لبنان. وكأن ذلك الحبر الاعظم الخالد الذكر بفراسته قد قرأ ما سبقت ورسمته العناية الالهيّة للبنان على يد الحويك فصرّح له بتلك الارادة العالية الابوية . فانحنى الحويك مليباً اشارة من اشارته حكم مطيعاً لرغبته وغادره وغادر رومية مزوداً ببركته الرسولية متيمناً بها ، متّكلاً على الله مرتمياً بين يدي الرب. فحملته انواء البحر وعواصفه ، وهو لا يعي على شيء من شدة الدوار الذي المّ به ، الى ان بلغ لبنان عند مغيب اليوم الرابع من كانون الثاني سنة ١٨٩٩ . وفي صباح اليوم الخامس من الشهر عينه قُرعت اجراس لبنان من اطرافه الى اطرافه تبشّر الموارنة والبلاد بأن قد ارتقى الى السدة البطريركية الانطاكية على الموارنة المطران الياس الحويك باجماع الرأي بين اساقفة الموارنة في ذلك العهد. فاستغرب الناس عند ما رأوا ذلك النجم الذي ما كان احد يفكر فيه، ولم يكتموا استغرابهم !

غير ان الله الذي ربط حظ الموارنة بالسدة البابوية الرومانية شاء ان يبزغ هذا النجم من ذلك الافق العالي الفسيح ليُفهم الموارنة واللبنانيين ان طالعهم معلّق على تعلّقهم بالسدة الرومانية ، وانهم لتلك السدة الرسولية مدينون بوجودهم الديني وثباتهم الاعتقادي وكيانهم السياسي والمدني، وانهم اذا افترقوا عنه او ابتعدوا قيد شعرة يزول مجدهم ويغيب طالعهم !

فمن كان يظن ان جرس الكنيسة في حلتا يوم كان يُقرَع وحده في حفلة تنصيب الياس الحويك قبل ست وخمسين سنة كان يدعو اجراس الكنائس في لبنان

لتشاركه في فرحه ، ولو بعد نصف قرن ونيف. ومن كان يتوهم وتتنذر ، ولو في الحلم ، ان صوت ذلك الجرس الذي كان يضيع صداه في اودية حلتا المجاورة بعد ان يتجاوب فيها سيضيع بين اصوات اجراس لبنان المترنحة فرحاً في صباح ٥ كانون الثاني سنة ١٨٩٩ ؟ !

ان ما هو مجهول عند الناس لمعلوم عند الله ، وما هو صغير في عيون البشر لعظيم في عينيك يا رب ! ولكن كم سُمع في لبنان على اثر انتشار بشرى ارتقاء الحويك الى كرسي بطرس الانطاكي كلام يشبه كلام نتنائيل الاسرائيلي الذي لا غش عنده»[1]: «أمن حلتا يخرج راعي الموارنة ؟ ايكون في حلتا شيء صالح ؟»[2]

أجل هذا كان رأي أكثر الناس يوم ذاعت البشرى بالبطريرك الحويك. امّا رأي العناية الالهية فقد كان غير ما ارتأى البشر. فما احسن الاعتماد على الرب وعلى عنايته الصمدانية وما افقر الاتكال على الناس وعلى نظرهم القصير !

ولما قُرعت الاجراس في كفرحي حيث جلس القديس يوحنا مارون ، اول بطريرك على الطائفة المارونية في لبنان ، كانت غرّة ، والدة البطريرك الياس الحويك ، في كنيسة البطاركة هناك تصلّي حسب عادتها التي واظبت عليها بعد إرمالها ثلاثين سنة في تلك الكنيسة لا تفارقها لا ليلاً ولا نهاراً كأنها حنّة النبية تنتظر في هيكل الرب عزاء اسرائيل[3]. فلم تقطع صلاتها ولا سألت عن اسباب قرع الاجراس. فجاءها من بشّرها بارتقاء ابنها الياس الى كرسي بطرس الانطاكي فقالت : « جعل الله ذلك لخلاص نفسه وخير الطائفة ، وحماه من المجد العالمي . اني اخاف ان يجرّه مجد البطريركية الى المجد الباطل فيضطر ان يتأسف يوماً وهو في ابان العظمة البطريركية على سذاجة حلتا وقداسة الحياة فيها ! فصلّوا لاجله » !

عواطف امّ قديسة ما كان يبعدها عن الله وعن سذاجة حياتها شيء من عظمة هذه الحياة !

الّا اننا نستطيع ان نجاوب تلك الام التقيّة بعد ثلاث وثلاثين سنة مضت على ابنها الياس في البطريركية المارونية ، بعد ان بلغ ابنها اوج المجد في حياته ،

١) يوحنا ١ : ٤٧ ٢) يوحنا ١ : ٤٦ ٣) لوقا ٢ : ٣٦ و٣٧

ولم يبقَ مجال للاستزادة ، بعد ان شاهدنا ادوار ذلك المجد في حياته وفي مماته ، أن لا تخافي ايتها الام التقية على ولدك فانه سيعيش في مجد البطريركية كما كان في حضنك وتحت نظرك في مزرعة حلتا الصغيرة ملاكاً في جسم انسان ساذجاً عن حكمة مقدسة في اقواله وفي اعماله ، لا يزهو ولا يتكبَّر ، ينسب كل حسن فيه وكل عظمة ينالها وكل كرامة تأتيه وكل نجاح يصيبه الى الله وحده والى عنايته الصمدانية ، مغمضاً عينيه عن ذاته كما اغمضها عن المجد والكرامة اللتين كُفّن بهما يوم دفنته التي ما رأى لبنان ، ولا الشرق لها مثيلاً في جميع تقلّبات ايامه ولا دُرج في صفحات تاريخه صفحة شبيهة بتلك الصفحة الخالدة. ألا قرّي عيناً فهذا الولد هو قرّة لعينيك كما دعا لكِ ولوالده نسوة حلتا يوم وضعتِه غلاماً في دُجى ذاك الليل البهيم ليل ٤ كانون الاول ١٨٤٢ !

انا اعتقد ان صلوات تلك الام وسذاجتها وتواضعها وقداستها هي التي اوصلت الياس الحويك الى ما اوصلته. فما اعظم الام التي تصلّي وتكون قديسة ، انها تكون كنزاً للوطن عند الله وعند الناس ، ولا غرو فانا قد تعوّدنا ان نرى الى جانب كل قديس وكل عظيم اماً عظيمة وقديسة . فالى جانب القديس اغوسطينوس فخر افريقية ومجد اساقفتها وعمود الكنيسة الجامعة وملفانها ، نرى امه القديسة مونيكا التي ردت اغوسطينوس بصلواتها الى الله فكان منه ما كان ومن كان . والقديس لويس التاسع ملك فرنسة يكاد يحتجب بجلالته وعظمته امام عظمة امه الملكة بلانش ده كاستيل ! وهكذا دواليك كلما تلَونا تواريخ الرجال العظام في الدين والدنيا.

* * *

قد تساءل الناس في ذلك العهد ، ونحن نتساءل معهم اليوم ، ما الذي حمل الاساقفة الموارنة آنئذٍ فانتخبوا المطران الياس الحويك بطريركاً ولم يختاروا المطران يوسف ابا نجم كما كان يتوقع الرأي العام في الطائفة والبلاد ؟ وما هي الوسائط البشرية التي استخدمتها العناية الالهية حتى توصلت الى غرضها رغم اغراض الناس وظنونهم ؟ ان من امعن النظر في المسألة وحكّم عقله وحكمه على الاشخاص كما كانوا وليس كما يريد ، تتجلّى له الحقيقة بأجلى مظاهرها .

نظرة الاساقفة الموارنة المجتمعون وقتئذٍ في بكركي الى كفاءة كل منهم ، فوجدوا ان الحويّك كان المطران الذي اختاره البطريرك الراقد بالرب ، يوحنا الحاج ، من كان يعرف زمانه ورجاله افضل معرفة ، ليحقق افكاره ومشاريعه الكبيرة فأسند اليه الاهتمام بإحياء مدرسة رومية ، وبانشاء الوكالة البطريركية في القدس ، وبالحصول على كراسي مجانية للاكليريكيين الموارنة في باريس وبتأسيس جمعية راهبات العائلة المقدسة المارونيات . وان الحويك كان عند حسن ظنّ ذلك البطريرك المقدام ، وانه قام بمهمته احسن قيام وفاز بها سريعاً فوزاً لم يسبقه اليه احد قبله ، اذ كان سبق فعُهد الى بعض الاساقفة السعي لتجديد مدرسة رومية مع التفويض اللازم لذلك فلم يفز احد منهم في مهمته . ووجدوا ان الحويك كان اوسعهم علماً واكثرهم اختباراً قد تمرّن بالاسفار ، واحتكّ بكبار الدين والدنيا في الشرق والغرب ، وكان قريباً من قلب الحبر الاعظم بابا رومية لاون الثالث عشر ، وتلميذاً من خريجي جامعة انتشار الايمان المقدس . ورأى المطران ابو نجم المرشح الوحيد الذي كان يزاحم الحويك ، ان الحويك صديقه الصدوق ، ورجل الساعة بعلمه وفضله ، فتناسى شخصيته وبرزت امامه شخصية الحويّك لامعة لا تشوبها شائبة ، فقال مع القديس يوحنا المعمدان : « له ينبغي ان ينمو ولي ان انقص .»[1] فآثر ان يتنازل لصديقه من ان يتشبث بذاته ليظلّ السلام سائداً في ربوع الطائفة وليُنجو من المسئولية العظيمة في تحمل مشاقّ البطريركية . فالعلم الراجح في الحويك والفضيلة الممتازة ، والاختبار الطويل ، والثقة السماء التي كانت للبطريرك يوحنا الحاج فيه وفوزه في ما اسنده اليه من المهامّ الخطيرة ، وحكمة وتضحية المطران ابي نجم والرغبة في اجراء الانتخاب البطريركي بدون اختلاف خشية من ازعاج رومية ، كل هذا ألجأ المطران ابا نجم ليقول لاصحابه لا تقترعوا بعد لي ولكن لأخي المطران الحويّك فهو افضل مني . قال هذا وفعله امام الجميع ، فكان كبيراً بتنازله وتواضعه ، كما كان كبيراً من قبل بعلمه وفضائله . وكان من وراء عمله ان العناية الالهية اتمت مقاصدها وفازت بمن شاءت .

---

١) يوحنا ٣ : ٣٠

ان اتحاد الموارنة برومية تظهر نتائجه الحسنة في مثل تلك الظروف لان معرفة الاساقفة اصحاب الحق بانتخاب البطريرك ان اختلافهم قد تكون عاقبته الالتجاء الى رومية للفصل فيه ، ولحرمانهم من حق لهم مقدس اساؤوا استعماله ، تضطرهم الى الاستعداد والتفكير ، والحرص الشديد قبل الاقدام على عمل يخسرهم حقهم او يشير الى انهم ما عرفوا الاستفادة منه . وهم في هذا امثولة لغيرهم من الطوائف الغير الكاثوليكية ، ومثال يُستفاد به منهم لدوام الاتحاد مع رومية .

فبارك الله باتحاد يفيدنا للارض وللسماء وسلام على أرواح اولئك الاساقفة الذين عرفوا ان ينظروا الى مصلحة الطائفة ويفضلوها على مصالحهم الشخصية ، الذين آثروا مجد الطائفة ومجد الكنيسة ومجد الله على مجدهم الخاص . ان اجيال الملة المارونية واجيال لبنان تعترف بجميلهم وتبارك الى الدهر اسماءهم وتخلد لهم ذكرهم . وتباركت العناية الالهية التي تسخر لارادتها العقول والقلوب من كبار الناس وصغارهم !

نظرة الى البطريرك

اذا انت رمقت الكوكب بنظرك تراه كله ، او اذا انت رفعت لحاظك الى لبنان من بعيد وانت راجع اليه من المهجر على ظهر السفينة تشاهده جميعه بعظمته وجلاله يناطح السماء بآكامه الدهرية البيضاء ثلجاً ، ويحتاط بسواحله مع البحر وباطرافه المرتفعة مع الافق والفلك العالي . ولكنك اذا دنوت من لبنان بذاتك ووقفت في وادٍ منه او في اي مكان فلا يقع نظرك الا على بقعة منه صغيرة هي الاقرب اليك ، ويغيب الباقي عنك فتصرف الايام وربما الشهور ، تتنقل فيه من بقعة الى بقعة على قدميك او في سيارة لتراه جميعه وتعجز ويعييك التعب . واذا ادناك المنظار المكبّر من الكوكب لا تشاهد منه الا نقطة من بحر لا شيء فيها من جمال ذلك الكوكب السيّار ولا من سنائه ! هكذا يكون حظك من الرجل الكبير الطويل العمر الكثير الاعمال ، اذا انت رمت ان تقرأ سفر حياته جميعه يوماً فيوماً ودقيقة فدقيقة . انك تضيع بين المألوف والتافه من اعماله وبين الخطير والنادر القياس منها فلا تدرس الانسان الكبير بوقائع ايامه كلها ، بل قف على جبل عالٍ من بعيد ، وانظر

اليه جيلاً عالياً بعيداً عنك فتمتع لحاظك بعظمته وشموخه في الفلك العالي بجمال هضباته وسفوحه واوديته وصخوره ، فتهيب وتدرك كل حدوده بلحظة عين دون ان ترجع نفسك كثيراً . واكتفِ بان تقف ببصرك على بعض ما يلفت النظر من ساحر الجمال وجلال الخلق . قف بعيداً عن الرجل الكبير وادرسه بمجموعه فتراه كله ، وخذ لك من حياته امثلة يكون لك اي منها انموذجاً في الحياة . اني اعتمدتُ ألّا افعل الا هذا في اللمحة الوجيزة التي اضعها عن البطريرك الحويك . وما عساني اورد في هذه الفذلكة عن رجل عظيم عاش تسعين حولاً تقلّب فيها في جميع المناصب الدينية وقابل اعاظم عظماء الارض من سلاطين وامبراطرة وملوك ورؤساء جمهوريات الى ان صار عميد لبنان فكان للبنان تاريخاً حافلاً بالاعمال الكبيرة وبالمآثر الخطيرة في قرن كامل ؟!

وما عساني اقول عن بطريرك قضى ثلث قرن بطريركاً حدثت في ايامه حوادث خطيرة غريبة من حرب عالمية ومجاعات ونوائب ، ومن سقوط ممالك وقيام أخرى على انقاضها ، ومن زوال سلطنات وامبراطوريات من سفر الوجود الدولي ، ومن رجوع الاستقلال الى لبنان بعد ان فقده ثمانين حولاً ؟!

لهذا اني اعرض لانظار القارئ الكريم هيكل تاريخ الحويك في بطريركيته موردداً خطوط رسمه الجليل خطاً خطاً ، ذاكراً موقفه من ربّه ، ومن طائفته ، ومن رومية ، ومن فرنسة ، ومن لبنان ، ومن سائر ما يتفرّع عن ذلك .

غير اني قبل ان اشرع في التفصيل استعير القلم العلي السيّال ، قلم الاسقف المسجدي الفم والقلم ، الاصيل الرأي ، فخر الاسرة البستانية بحكمته ورقّته واجتماع القلوب على محبته ، المطران اغوسطين البستاني الذي ما عرف احد ان يصوّر البطريرك اللبناني بريشته كما صوّره هو ببراعته الخلّابة فقد صوّر اخلاق البطريرك كلها فاجاد واصاب بل اجاد وبلغ حد الاعجاز وما ترك لمستزيد مجالاً ، وصفه في الكوكب السيّار الذي دوّن فيه حوادث رحلة البطريرك الحويك عام ١٩٠٥ الى رومية فباريس فالاستانة ، قال ص ٢٠ :

« وقصارى الكلام ان غبطة سيدنا وأبينا المطوّب جمع من الكمالات والفضائل ما قلّما يجتمع لافراد الرجال فزيّنها بالمآثر وحسن الاعمال . وهو ،

غرّة الحويّك

والدة المثلث الرحمات البطريرك اللبناني الياس بطرس الحويّك

حرسه الله ، كما هو معلوم عند الجميع ، شديد الثقة بالله والاتكال عليه ، عزّ ثناؤه ، طاهر الذيل ، طيّب السريرة ، حرّ الضمير ، عزيز النفس ، سخي اليد ، نافذ البصيرة ، قوي الذاكرة ، رائق الذهن ، رحب الصدر ، قرن الفطنة بالشجاعة والعدل بالرحمة ، لا يحابي بالوجوه ، ولا يميل عن قصد السبيل ، رضيّ في كلامه ، صادق في روايته ، وفيٌّ بوعده ، لطيف بمحاضرته ، مهاب في مجلسه ، بعيد عن الغضب ، قريب الى العفو ، أب وديع ، ورئيس حكيم ، ساهر على اعمال وظيفته السامية فلا يُقضى منها عمل ولو طفيفاً الا بعلمه وامره ولذلك يُرى مقامه البطريركي ، الذي ملأه بمناقبه الغرّاء ومزاياه الفريدة ، موضوعاً لاجلال العظماء ولاحترام كرام الناس من كل ملة ونحلة ورتبة ومقام»[1].

هذه صورة البطريرك الحويّك منذ ارتقى الى السدة البطريركية سنة ١٨٩٩ الى عهد وصفه الكاتب الالمعي الامين سنة ١٩٠٥. هذه صورته من ذلك الوقت الى وفاته كما عرفتها بذاتي مراراً ، وكما عرفها كل من تقرّب من ذلك الرجل العصامي القديس واللبناني الفذّ. هذه هي صورته كما سمعنا بها ممن عرفوه مطراناً وكاهناً واكليريكياً ، فقد كان كجبل صنين الذي وُلدنا وعشنا ونموت وهو ماثل امامنا ، جبلاً عالياً مهيباً لا يتغيّر ؛ بل كالارز الخالد في لبنان الذي يحيا وينمو ، وتتغيّأ في ظلاله الاجيال والشعوب اللبنانية ، وهو هو كما كان لا يتغيّر في جوهره ولا في نضارته ولا في جماله.

هذه صورة الحويّك كما كان في جميع ادوار حياته. وقد رأينا شيئاً منها في ما اسلفنا فقلناه ، وسنرى الباقي في ما سنسرده بالاختصار من وصف حياته ولا سيما في عهد بطريركيته. وقد سبقت فوضعت صورة البطريرك كتابةً ووصفاً كما اعتاد الناس ان يصوّروا تراجم العظماء بصورهم الشمسية!

---

١) راجع الكوكب السيّار في رحلة . . . مار الياس بطرس الحويك . . . الى رومية وباريس والاستانة العلية ، وهو سفر نفيس من اغنى ما كتب في الرحلات اجتمع فيه من الفوائد ما ندر ان يجتمع في سواه. كُتب برقة وسلاسة وانسجام اقل ما يقال فيه انه السهل الممتنع ، صفحاته ٢١٣ صفحة ، وهو صفحة مجيدة من حياة البطريرك اللبناني لا غنى لمن يريد ان يتعرّف جيّداً الى ذلك البطريرك العظيم عن مطالعتها كلها. والادب والتاريخ مدينان جما لعلم سيادة المطران البستاني عهد كان لا يزال فتىً ناشئاً عاماً للرهبانية الحلبية اللبنانية المارونية.